النهار
الأثنين 24-12-2018 العدد 26741

رحيل سليم عبو: الأب الاستقلالي اللبناني "مقاومته الثقافية" انطلقت من اليسوعية

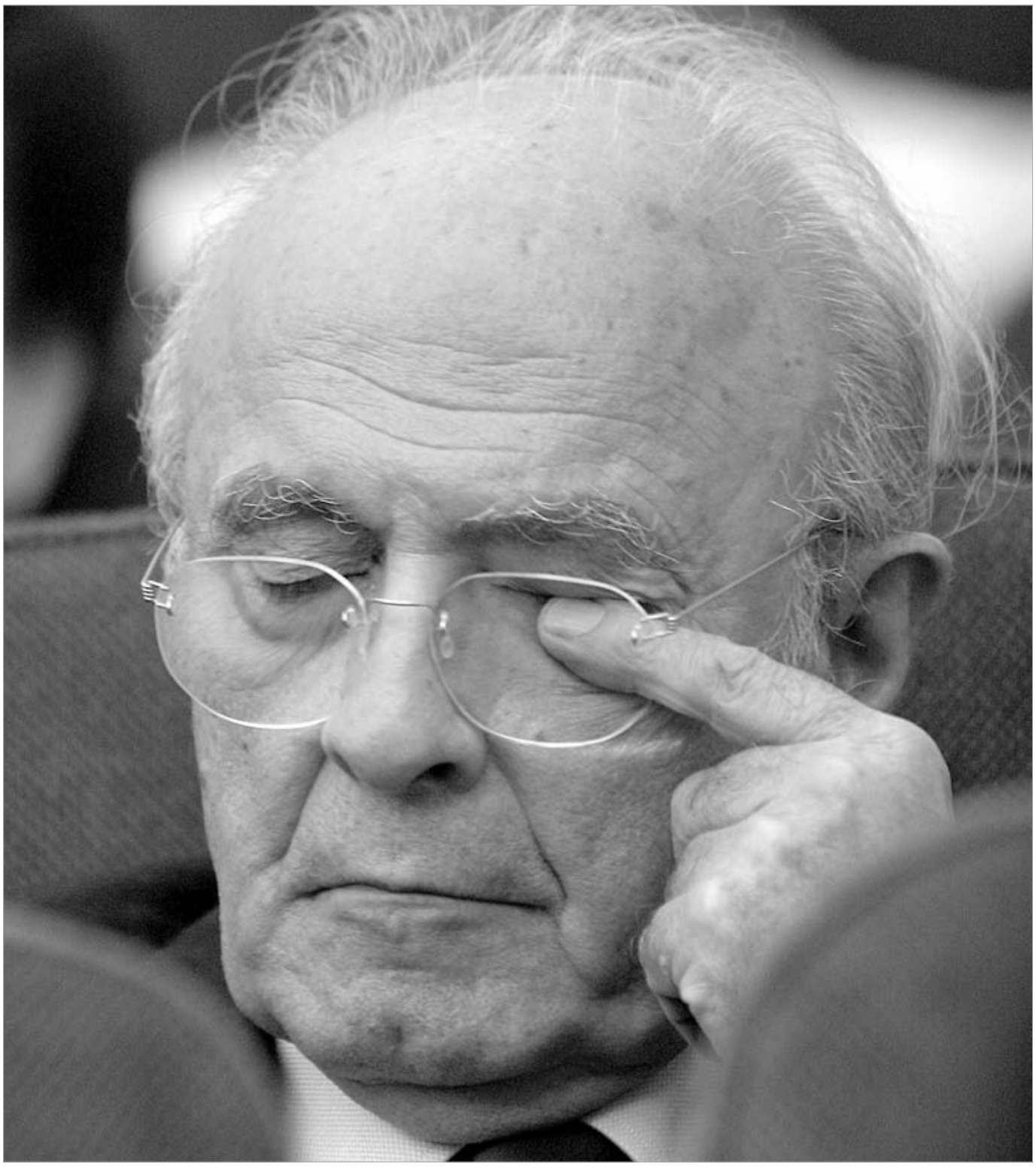

ابراهيم حيدر

تجرّأ سليم عبو وهو رئيساً للجامعة اليسوعية في لحظة سياسية دقيقة في لبنان تطبق عليه سلطة الوصاية السورية أخر التسعينات من القرن الماضي، على إطلاق "المقاومة الثقافية" الإستقلالية، والتي ستتحول شعاراً لن ينطفئ لتظاهرات 2005 الأذارية المطالبة بخروج جيش النظام السوري من البلد. هذه المقاومة التي أشعلها عبو والتي أحدثت سجالاً كبيراً في لبنان وأخرجت النقاش من الرماد إلى العلن حول الاستقلالية اللبنانية ودور المسيحيين فيها، لن تنطفئ برحيله بعد سنوات أمضاها متعباً ومرهقاً، فخرج إلى الحياة الآخرة وبقي متمسكاً بمبادئه التي أعطت النفس لأهل الاستقلال اللبناني وإن كان ربيعه لم يصل بالحرية إلى مراحل أمانها الأخيرة.

رحل سليم عبو وترك بصمات لا تزول في جامعته التي أحب، وفي المسار الاستقلالي اللبناني، وفي الفكر الفلسفي والاجتماع، وهو الذي جمع بين الفلسفة والانثروبولوجيا، حبث تركزت بحوثه على التقاء الحضارات في العالم، والتعددية الثقافية والمواطنة، والصراعات حول الهوية، وهذه الأخيرة التي تمثل أخطر الإشكاليات في منطقتنا والشرق عموماً. لكن اللبنانيين لم يعرفوا الأب اليسوعي جيداً إلا مع إطلاق مقاومته. فمنذ توليه رئاسة جامعة القديس يوسف في عام 1995، حتى 2003، عزز عبو في حركته التنويرية نبض الاستقلاليين على قاعدة ثقافية، وهو الذي فاجأ الجميع بدعوته إلى مقاومة الوجود السوري الذي اعتبره احتلالاً للبنان عن طريق المقاومة بالكلمة، فشكل خطابه السنوي في كل عام احتفالاً بعيد القديس يوسف السنوي، حضاً على العمل من أجل الاستقلال اللبناني، وكأنه حدث فكري ووطني ينتظره الطلاب للتزود بعناصر تمكنهم من المقاومة والصمود في مواجهة سلطة الوصاية.

ولعل خطابه الأخير رئيساً للجامعة في عام 2003، قد شكل عنواناً لمرحلة جديدة سيعيشها لبنان لاحقاً، وقد اكتملت معالمها بانسحاب الجيش السوري من لبنان، من دون أن يتنبأ أن الوصاية كامنة في التركيب اللبناني الذي يأخذ البلد عند كل منعطف إلى وصايات خارجية. وقد واكبت "النهار" من موقعها الاستقلالي مقاومة الأب عبو، و"الوصية" الجامعية الاخيرة فـ"لا ندعنّ طعم الحرية يفسد فينا ولا ندعنّ شعلة الحرية ترتجف فينا"، واعتبرت وصيته الكبرى حين أكد ان "المقاومة الثقافية هي وجه اساسي من وجوه المقاومة السياسية... فليس مطلوباً منا بالتأكيد ان نقاوم بالسلاح بل المطلوب ان نقاوم باللجوء الى وسيلة سلمية هي احياناً اكثر فعالية ألا وهي الكلمة". وكأن عبو كان يتأمل المستقبل الذي عشناه ونعيشه اليوم حين تنبّه ان "النظام السوري نجح الى حد بعيد في اقناع الدول الكبرى بأن اللبنانيين عاجزون عن تولي شؤونهم بأنفسهم وبأنهم من دون وصايتها سيتقاتلون من جديد". وأن هذا النظام تمكن من "شرذمة المجتمع اللبناني الى حد بات معه في وسعه ان يتسبب باضطرابات داخلية في كل حين". والاهم أيضاً كان بالنسبة إلى عبو دور الجامعة، فإذا كان يدعو إلى حماية التعليم العالي اللبناني، فإن دورها "إن كانت تربي مواطني الغد، الذين يعون واجباتهم تجاه الدولة، يتعين عليها ايضا ان تدافع عن حقوقهم في مواجهة الدولة. ولكن حين يتعرض الخطاب النقدي للقمع والكبت بذريعة انه ينال من الروح الاكاديمية، ومن النظام الاجتماعي، او من امن الدولة، فانه يتحول لا محالة الى مقاومة".

ليس الخضوع من سمات الراحل الأب سليم عبو، فهو يدل في لبنان على الخنوع. لذا قاوم ثقافياً حتى الرمق الأخير وانتقد كل من يعتبر نفسه استقلالياً أن يخضع للمحتل، وإن كان من طينة أحزاب عريقة. وهو إذ كان يشدد على مفهوم المواطنة وينحاز إلى النزعة الوطنية في مواجهة العولمة، كان يعي دور المسيحيين في هذا الشرق، ومن خلال مقاومته الثقافية كان يناضل ضدّ محاولات تطويع المسيحيين، ومن ذلك أن "التعدّدية الثقافية"، بمعناها، الثقافة العربية، هي وجه من أوجه هوية لبنان وثقافته، وليست كلّها مكوّنات ثقافته. وكلام عبو نظريته لا تقف على الضد من العروبة، "ففي ظل هيمنة السوريين على البلد، وتغذيته التناحر الطائفي والمذهبي، والإخلال، بالتوازنات التاريخية بين الطوائف، وانتهاك القوانين والدستور، وسنّ القوانين التي تخدم مصالح وأتباع، لم يُعط المسيحيون الفرصة كي يختبروا "عروبتهم الجديدة"، التي فرضها عليهم اتفاق الطائف" في لحظة ضعفهم وتشتتهم. بدلًا من ذلك، عايشوا أسوأ أنواع "العروبة السورية" والهيمنة على المجتمع والحياة السياسية، وامتصاص اقتصاد البلاد، وإضعاف الرئاسات الثلاث، وتهميش المسيحيين. لذا ارتكزت كل نظريته في هذا المجال على المقاومة الثقافية.

نودع الأب سليم عبو، الاستقلالي والفيلسوف والانتروبولوجي والمقاوم الثقافي، وهو ختم 90 عاماً من مسيرته في الحياة، وله العديد من المؤلفات والكتب باللغة الفرنسية، فأثرى بفكره الحياة الثقافية اللبنانية.

ibrahim.haidar@annahar.com.lb
Twitter: @ihaidar62

النهار
الخميس 27-12-2018 العدد 26742

لبنان سليم عبو اليسوعي: المقاومة الثقافية التي لا يخلو خطابها من العنف

الأب صلاح أبوجوده اليسوعيّ
أستاذ في الجامعة اليسوعيّة

كان الأب سليم عبو يُدرك حدود الميثاق الوطنيّ في صهر اللبنانيّين وجعلهم بوتقةً واحدة، وطالما كرّر في مجالسه الخاصّة وأوساطه التربويّة والثقافيّة اقتناعه بضرورة تلاقي اللبنانيّين على حقوق الإنسان، لما تمثّله من أرضيّة مشتركة يمكنها أن تعزّز "النموذج النفسيّ" الذي، بحسب رأيه، يطبع اللبنانيّين جميعًا بفضل تقولبهم وفقًا لمعطيات لبنان الجغرافيّة التي تفترض أيضًا عناصر روحيّة معيّنة. كما أثار غالبًا أهميّة إقرار قانون الزواج المدنيّ بصفته مدخلاً فعليًا لكسر البنية الطائفيّة الجامدة التي تمنع المجتمع اللبنانيّ من دخول الحداثة. ونظرًا إلى واقعيّته، كان يعلم أنّ نموّ وعي اللبنانيّين هذَين البُعدَين عمليّة تتطلّب مسارًا تربويًا طويلاً. وانطلاقًا من قناعته هذه، لم يكن يطيق أيّ انحراف عن محوريّة الميثاق - الضمانة لاستقلال لبنان وخصوصيّته، والأساس الذي يمكن عليه قيام لبنان المستقبل.

لقد كانت هذه قضيّة حياته. ففي أعقاب أزمة 1958، التي برزت في أثنائها وفي أعقابها شعارات التيّارات القوميّة العربيّة التي نادت بضرورة تنقية العالم العربيّ من رواسب استعمار الغرب وتدخّلاته، ذكّر الأب عبو بأنّ التعرّض لازدواجيّة ولاء لبنان الثقافيّ العربيّ - الغربيّ يعني نقض شخصيّة لبنان الثقافيّة الخاصّة وضرب لبنان الميثاقيّ في صميمه، إذ إنّ إرادة العيش معًا التي تُترجم في الميثاق هي على صلة عضويّة بواقع لبنان الثقافيّ الخاصّ. بالطبع، تبقى هذه الازدواجيّة سيفًا ذا حدّين: فإنّها، من جهة، تؤدّي إلى تحسين مستوى المؤسّسات التربويّة والاجتماعيّة بفضل تلاقي عناصرها وتفاعلها لما هو خير هذه المؤسّسات؛ وتُثير، من جهة ثانية، نزاعًا إيديولوجيًا على الظاهرة نفسها. ذلك أنّ اللغة بصفتها الناقل الثقافيّ تحمل قيمًا إنسانيّة ودينيّة وخبرات متنوّعة تؤثّر في طريقة فهم البلاد نفسها. فلا عجب، على سبيل المثال، أن يصبح تاريخ لبنان موضع خلاف أو موضع تفاسير متعارضة. فهل يكون الحلّ، إذًا، بالقضاء على إحدى اللغتَين: العربيّة أو الفرنسيّة، وقد اكتسبت الأخيرة مكانة متزايدة الأهميّة في الوسط المسيحيّ اللبنانيّ بفضل عمل المرسلين والإكليروس المحلّي؟ إذا كان للغتَين أثرهما في القيم الوطنيّة والثقافيّة أحيانًا سلبًا وأحيانًا إيجابًا، فإنّ مراعاة تعايشهما وتفاعلهما في إطار الميثاق الوطنيّ لا ينفصل عن احترام شخصيّة الأمّة اللبنانيّة الثقافيّة الخاصّة. وبكلام آخر، لا يمكن فصل إرادة العيش معًا عن وعي اللبنانيّين واقعهم الثقافيّ المميّز. فمن خلال التمسّك بهذه الخصوصيّة، يمكن النظر بتفاؤل إلى المستقبل، أي إلى التطوّر التدريجيّ الذي يلحق بلبنان حقوق الإنسان والحريّة الفرديّة. لذا، يجب الحفاظ على ما يوفّر الإطار السليم لهذه الخصوصيّة، أي الميثاق الوطنيّ، أيًّا كان الثمن؛ إذ إنّ نهائيّة الكيان اللبنانيّ مرتبطة به وبطريقة فهمه الميثاقيّ المنفتح على شروط التطوّر.

فلا عجب إذًا أن يتّسم خطاب الأب عبو المرتكز دومًا على أسس فلسفيّة وإنتروبولوجيّة متينة، بجرأة لا تخلو من الحدّة، بل ومن العنف أحيانًا، إزاء كلّ مشروع أو سياسة أو إيديولوجيا ترمي إلى القضاء على خصوصيّة لبنان، أو ضمّه إلى كيان آخر، أو إلحاقه بسياسة خارجيّة، أي جعله تابعًا أو خاضعًا لمرجعيّة خارجيّة.

وفي هذا السياق، ثار الأب عبو على ثقافة الصمت والخوف والخضوع التي بدأت تترسّخ في الوسط اللبنانيّ مع اكتمال الوصاية السوريّة على لبنان في أعقاب اتّفاق الطائف، فانتقد في العام 1997 الخطاب الإيديولوجيّ الذي كان ينادي بتعريب الثقافة اللبنانيّة؛ وفي العام 1999، انتقد بشدّة السيطرة السوريّة التي كانت تحاول إلغاء استقلال لبنان وخصوصيّته، وهذا موقف درج على تكراره في جميع خطاباته، ولا سيّما تلك التي كان يلقيها لمناسبة عيد جامعة القدّيس يوسف أثناء تولّيه مهمّات رئاستها (1995-2003)، وكان لهذه المواقف دورها الرائد في إيقاظ الوعي الوطنيّ من سُباته، وإبراز أهميّة المقاومة الثقافيّة التي تبقى أشدّ فعاليّة من سياسة كمّ الأفواه وإلغاء الخصم، وفرض التفكير الأُحاديّ، وتأليه القائد.

يندرج فكر الأب عبو، في الواقع، في إطار تيّار القوميّة اللبنانيّة الذي تأسّس مع ميشال شيحا. لنترك جانبًا نظريّة استمرار فينيقيا الأمس في لبنان اليوم التي طبعت بعض نواحي هذا التيّار الفكريّ، وما تفترضه هذه النظريّة من "لبننة" جميع مكوّنات المجتمع اللبنانيّ وفقًا لعناصرها - وهي نظريّة يجب أن تُفهم في إطارها الزمانيّ وتحدّياته الإيديولوجيّة؛ ولنضع أيضًا جانبًا مسألة حضور أو عدم حضور فكرة تأسيس وطن مستقلّ في سياسة فخر الدّين والأمير بشير، وهي مسألة موضع تفاسير تاريخيّة كثيرة ومتناقضة؛ ولنتجاوز حصر التلاقي الثقافيّ بمعناه الواسع في لبنان بالناقلَين المتمثّلين باللغتَين العربيّة والفرنسيّة، لا سيّما أنّ التعدديّة الثقافيّة تزداد منذ استقلال لبنان وتشتدّ منذ حدث العولمة، ولننظر إلى واقعنا الراهن بموضوعيّة: ألا يعيش اللبنانيّون إلى اليوم في الوضع نفسه الذي ظهَّره تيّار ميشال شيحا الفكريّ واستمرّ مع سليم عبو؟ ألا يبقى لبنان بلدًا له خصوصيّة سياسيّة وثقافيّة في محيطه العربيّ، تفتح على مستقبل واعد بقدر ما تُفهم تلك الخصوصيّة تفاعلاً إيجابيًا بين الثقافات والأديان، يبحث عن خير المواطنين فحسب؟ وفي المقابل، ألا يبقى لبنان عرضة للأزمات الكيانيّة والتدخّلات الخارجيّة بقدر ما تُفهم تلك الخصوصيّة سلبيًا، أي وكأنّها عناصر سلبيّة مكرهة على العيش معًا؟

تبرز إزاء هذا الواقع أهميّة استمرار "المقاومة الثقافيّة" التي أطلقها الأب عبو. ذلك أنّها تهدف إلى الحفاظ على لبنان ميثاقيّ يتطلّع إلى مستقبل تسوده حقوق الإنسان والحريّة الفرديّة والانتماء الوطنيّ الجامع. تبقى تلك المقاومة ضرورة في وجه السياسات التي تحوّل الناس إلى قطعان، وتنشر ثقافة الموت التي تؤلّه القادة وإيديولوجياتهم، وتفسد المسؤولين وتنزع بهم إلى العيش في خبرات الماضي السلبيّة، وتغلّب عند بعضهم مصالح الدول الخارجيّة على مصلحة بلادهم، وتحطّ من الانتماء الوطنيّ، وتدفع بالشبيبة إلى الهجرة وقد نال منها اليأس من تحسّن ظروف البلاد. يجب ألاّ يموت لبنان ميشال شيحا وسليم عبو!

النهار
الجمعة 2018-12-28 العدد 26743

ميشال الخوري نعى الأب سليم عبو: رمز المدافعين عن السيادة والحرية

نعى رئيس "جمعية اعضاء جوقة الشرف في لبنان" الوزير السابق الشيخ ميشال ب. الخوري، عضو الجمعية الرئيس السابق لجامعة القديس يوسف الأب سليم عبو.

وقال الخوري: "بغياب الأب عبو يخسر لبنان، ليس فقط رجل الدين المؤمن والساهر على تعميم تعاليم الكنيسة، من خلال الرهبنة اليسوعية التي انتمى اليها، بل يخسر ايضاً رجل فكر وعلم ومعرفة سهر على تربية اجيال من الطلاب والجامعيين من خلال ترؤسه جامعة القديس يوسف لسنوات. كما تخسر الثقافة احد ابرز رجالاتها الذين اغنوا المكتبات بالمؤلفات التي باتت مراجع لكل باحث وقارىء ومثقف.

اضاف: وإلى كل تلك الصفات، تميز الراحل الكبير بايمانه بلبنان الوطن الذي اعتبره وطنا نهائياً وناضل من خلال مواقعه المختلفة لبث روح النضال من اجل سيادته واستقلاله وسلامة اراضيه، لا سيما في الزمن الذي عانى منه لبنان وشعبه من ممارسات كان يتصدى لها الراحل الكبير قولا وفعلاً، حتى غدا رمزا من رموز المدافعين عن السيادة والكرامة والحرية.

وختم إن جمعية اعضاء جوقة الشرف تفتقد بغياب الأب عبو عضواً بارزا فيها عمل باخلاص لتعميم القيم التي يمثلها وسام الجوقة، وظل حتى آخر حياته ساهراً على تطوير الجمعية وتفعيل حضورها.

النهار
السبت 29-12-2018 العدد 26744

سليم عبو في معضلته المُنتَقَصة

هذا المقال نُشِر على موقع "النهار" الإلكتروني أمس الأول الخميس وتنشره اليوم صفحة القضايا مع بعض التعديلات عليه:

جهاد الزين

ليس بمحض الصدفة أن كتابي الجديد: "المهنة الآثمة - نقد تجربتي في الكتابة السياسية" الذي صدر قبل وفاة الأب الكاثوليكي اليسوعي (الأرثوذكسي الأصل) سليم عبو ببضعة أسابيع، يشير إلى الأب عبو باعتباره الشخص الوحيد في الوسط الأكاديمي الذي تفاعل على واحد من أعلى المنابر الأكاديمية والثقافية في لبنان مع فكرة "الوطنية الدستورية" التي أطلقها (أو الأرجح تبنّاها لا أطلقها) المفكر الألماني يورغن هابرماس كنموذج ولائي واقعي للاتحاد الأوروبي وأجدها حلاً لوطنية لبنانية فعالة وعاقلة يمكن ويجب أن تخرجنا من متاهة الخرافات الوطنية الأخرى التي يستطيع كل منا اختيارها ولكن بغير جعلها، الوطنيات الأخرى، شرط الولاء للكيان - الدولة (وليس السلطة طبعاً).

ففي الصفحة 241 ورد التالي:

"من الملاحَظ أن هذه الفكرة "الوطنية الدستورية" لم تحظَ بالاهتمام في الأوساط السياسية والثقافية اللبنانية وربما العربية خلافاً لأفكار حديثة أخرى مثل "الديموقراطية التوافقية".

"مرة وحيدة، في ما يتعلق بتجربتي الشخصيّة، تفاعلَ مثقفٌ ذو تأثير مع هذه الفكرة من أحد مقالاتي التي أستشهدَ فيها بهابرماس، وتوقّف عندها مع الإشارة لمقالي في الخطاب السنوي لرئاسة الجامعة اليسوعية التي كان يتولّاها في التسعينات هو الأب سليم عبو، وكان يحاول أن يجعل منبره مركزا لإطلاق أفكار ومواقف سياسية خلافا لعادة رؤساء الجامعات الخاصة الكبرى".

كان الأب عبو بدأ يصبح ظاهرة سياسية وثقافية مع جعله، لأول مرة، الخطاب السنوي لرئيس الجامعة اليسوعية، وفي الحقيقة لأي رئيس جامعة آخر في لبنان، مناسبة لإطلاق مواقف سياسية مبنية طبعا، كأكاديمي، على أسس ثقافية. شكّل ذلك موجة جديدة جريئة وغير مألوفة على هذا المستوى العلني من الممانعة المسيحية للإدارة السورية القابضة بتفويض عربي دولي على الدولة اللبنانية آنذاك، دولة السلم الأهلي.

بدأ ذلك مع توليه رئاسة الجامعة عام 1995. كنتُ لا أزال في صحيفة "السفير" (حتى آخر نيسان عام 1997). ومن ذلك الموقع لفتتني الظاهرة بعد خطابه السنوي. فاتصلت بالراحل فؤاد بطرس لأسأله من هو بالضبط سليم عبو لأني كنت أسمع عن رعايته لبعض الطلبة اليساريي النزوع في بيئة الجامعة اليسوعية وبعض المعاهد الفرنسية منذ السبعينات وكنت لا أزال على مقاعد الدراسة في كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية.

إذن نحن هنا مع هذا التداخل المرتاح بين اليسارية الثقافية في الزمن الذهبي اللبناني ولو القلِق والذي سيتحول إلى حساسية كيانية شرسة ثقافيا وغير مرتاحة في رفض استيعاب لبنان من أي خطاب يساري أو عروبي.

سيظهر أثر سليم عبو، والأدق ستظهر هذه الحساسية التي تشمله وتشمل غيره في جيل تلامذته وأصدقائه كسمير فرنجية وآخرين في التسعينات بعد أشكال مختلفة فردية قام بها بعضهم، وليس هو، من التعاون مع الوطنية العروبية أو الفلسطينية. ستصبح هذه الحساسية قوة سياسية "قتالية" كيانية من مخضرمي الموارنة الفرنكوفون وبعض شباب ميليشياتهم المستبعَدة يومها مع تأسيس لقاء "قرن شهوان" عام 2001.

بين إشارة فؤاد بطرس إلى "أرثوذكسية" سليم عبو على طريقته التي تعطيك انطباعا غامضا على الهاتف وتهكّم غسان تويني على النواة المسيحية لما سيصبح "انتفاضة 2005" عندما يقول: "حدا بيسمّي حالو قرنة شهوان!" وهو في ذروة تأييده لاندفاعة "النهار" في دعم "قرنة شهوان" ونجله جبران عضو بارز فيها... بينهما كان يرتسم المشهد المسيحي الذي سيقوده البطريرك صفير في سنوات الألفين... ومعه جيلان من البورجوازية المسيحية، خصوصا المارونية التي يقول عنها صديق ماروني مازحا لا يريد أن أسمّيه: كنا مجموعة "معّازة" وجاء الفرنسيون وعلّمونا وعمّلونا بني آدمين، ها هم الشيعة "المعازة" جاء الإيرانيون وعم يعملوهم بني آدمين بالسياسة".

الموارنة بالسياسة والثقافة على مدى قرون. نعم الفرنسيون. أما الشيعة فبالسياسة وليس الثقافة التي حصّلوها من جامعات لبنان والعالم كغيرهم لاحقا من أبناء كل الطوائف. لا أتكلم عن الثقافة الفارسية التي هي مغلم بل أحد المعالم الأكثر تألقا في التاريخ الثقافي المسلم في مثلثه الذهبي العربي التركي الفارسي، لأن النظام الديني الإيراني حتى لو غيّر السوسيولوجيا الشيعية ونقلها إلى مرحلة سياسية مختلفة نوعيا في لبنان والمنطقة إلا أن تأثيره الثقافي والعلمي محدود بل فقير. وهو ليس ممثل هذه الثقافة الفارسية المضيئة في خارج إيران إلا في بعض المستويات التي تفرضها نخبة إيرانية غالبا معارضة له كما في السينما. أما الفرنسيون فقد غزوا لبنان (والهلال الخصيب) بالمدارس منذ القرن السادس عشر ولحقهم "المبشرون" الأميركيون الأكثر علمانية.

المشروع الكياني اللبناني قد يكون مشروع الدولة الوحيد، أي المشروع السياسي الوحيد في المنطقة الذي تأسس عبر المدارس، في حقبتيه: المتصرفية وخصوصا "لبنان الكبير". الجميع يتعلم اليوم وعلى أعلى المستويات بفضل العولمة وفي الغرب نفسه. لقد صرنا في حقبة مختلفة في العالم. المهم أن لا تستكمل دولنا انهياراتها. وفرنسا نفسها تعاني، من موقع دولة متقدمة، أزمة هوية ثقافية. لكن هذا حديث آخر.

كتبتُ في "السفير" (وليس في "النهار") عن ظاهرة الأب عبو وبإعجاب بعد أحد خطاباته الشهيرة لكني لم ألتقه إلا بعد سنوات وبدعوة من الصديق شبلي ملاط في أحد مطاعم حي "مونو" في الأشرفية. كان أصبح في التقاعد. وعندما تقول التقاعد في النظام اليسوعي أو الرهباني عموما فهذا يعني أنه يعيش مكرما ومتقشفا في غرفة صغيرة في مجمع يخصص للمتقاعدين، وفي حالة اليسوعيين في نطاق مبنى من تلك المباني القديمة والصامتة في محيط تلك المنطقة "اليسوعية". أكان رئيسا سابقا لجامعة يتبع له مع مؤسساتها ومستشفى أوتيل ديو آلاف الأساتذة والأطباء والموظفين والطلاب أو كان راهبا عاديا فهو يعيش بتقشف يليق بالعلماء. وليس من راهب عند اليسوعيين إلا عالمٌ ومتخصص.

آمن عميقا منذ باكورة إنتاجه، كتابه الأول، عام 1962 بالثنائية اللغوية العربية الفرنسية في تشكيل التميز اللبناني.

مرةً عدت من المغرب ومعي كتاب عبد الكبير الخطيبي بالفرنسية "حب بلغتين" (Amour Bilingue) وهي رواية ذات تركيب خاص عن شخص مغربي قلق بين شكلي التعبير عن غرامه بامرأة فرنسية فيحبها بِ و بين وعِبر لغتين تحملان كلّ منهما لا تناقضَ ثقافتيهما فحسب بل تمايز مشاعرهما وانقسامات كل من شخصيتيهما بحيث تتحول "اللغة" إلى البطل الحقيقي في الرواية.

يكتب الخطيبي، وأسمح لنفسي بترجمة غير متخصصة لجمل قليلة من عمله:

"نعم، من لغة إلى لغة سيظهر حدثٌ ويختفي، حدث استثنائي يتطلّب طاقة غير عادية. حدث نسمّيه: لغتين (bi-langue)، اختلاف لكل تفكير يؤكّد نفسه ويلغي نفسه في الترجمة".

ويكتب:

"اللغة أعطتني نحو كلية الكلمات، اللغتان نحو انقسام الكلمات داخلي: الحب، الحسد، الكارثة".

ويكتب:

"الذي لا يمكن حسابه كان يجري في حيّز آخر، في ثابتة الترجمة التي صارت حياتي نفسها"

وببعض التصرف الذي يحمل المعنى العميق الذي يريد الخطيبي إيصاله أقول: العيشُ، عيشة، باعتباره عيشاً مُترجَماً.

أحببتُ في نوع من الشغَب الودّي على تخصيصه لبنان بالثنائية اللغوية أن ألفت نظره إلى تجربة الثنائية اللغوية ولكن هذه المرة في دول ومجتمعات نخب مسلمة وليس مسيحية، فأهديته نسخة من كتاب الخطيبي. طبعا السياقات مختلفة ولكن المشترك موجود حتى لو كانت التجربة المسيحية اللبنانية تتبنى المشروع الثقافي ولا تراه كولونياليا بينما في المنطقة المغاربية المعضلة الكولونيالية عميقة. ثم أن ما كان ثنائية فرنسية عربية للبنان لدى النخبة المسيحية أصبح ثلاثية فعالة وعميقة عربية إنكليزية فرنسية في لبنان، "أنغلو ساكسونية" المسلمين ليست فقط بين اللبنانيين بل بين العرب والمسلمين. أقول ذلك مع كل الاحترام الذي يستحقه فرانكوفونيان كبيران مسلمان بيروتيان هما صلاح ستيتيه في الشعر وأهيف سنو في أكاديميا الآداب.

عاش الأب عبو ليشهد صامتا تعديلات "التوازن اللغوي" اللبناني وقيَمِه وخصوصا بعد أن دفعت انفتاحات الوضع اللبناني ومنها مِنحَ رفيق الحريري الشهيرة والواسعة في الثمانينات، ألوف أبناء الطبقات الفقيرة خصوصا المسلمة إلى عوالم التعليم الغربي العالي لا سيما الأنغلوساكسونية. الآن لا يحتاج الوضع العالمي إلى دفع النخب أينما كان نحو هجرة في عالم تسيطر عليه، حتى في الصين، الثقافة الأميركية، ويهرب السوريون حرباً والمكسيكيون سلماً، إلى حيث النجاة الحياتية قبل الثقافية.

لا أعرف ظروف تحول الأب عبو إلى الكاثوليكية، ولكني أكيد أن الكاثوليكية اليسوعية هي أقسى أشكال التنظيم الكاثوليكي لأن هؤلاء "الرهبان السود" المتخصصين بتخريج النخب الحاكمة أو النافذة، شهيرون بطاعتهم العمياء لبابا روما. إذن كاثوليكي يسوعي يعني أنه كاثوليكي يسوعي ونقطة على السطر. (معروف أن شقيقته السيدة عبو هي مؤسسة مدرسة لويس ڤاغمان الراقية، أقصد فقط بالراقية المستوى التعليمي. لكن هذه قصة أخرى لا أعرف عنها الكثير، وليزُرها غيري).

وداعاً دكتور عبو.

■ Selim Abou: Le bilinguisme arabe-français au Liban (essai d'anthropologie culturelle), Paris, PUF, 1962.

Jihad.elzein@annahar.com.lb
Twitter: @ j_elzein

النهار
الخميس 10-01-2019 العدد 26751

من سليم عبو إلى سليم دكاش: الجامعة والجسم السياسي

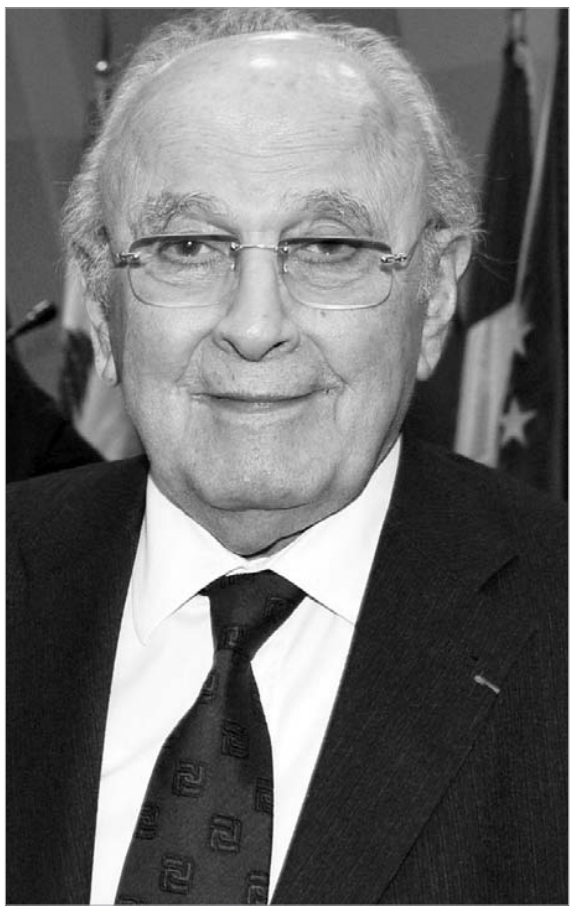

الأب سليم عبو.

الأب سليم دكاش.

أنطوان قربان
أستاذ في الجامعة اليسوعية

انتهى العام 2018 بكارثة سياسية في لبنان. هكذا يحلو لي أن أتخيّل الرأي الذي كان من الممكن أن يعبّر عنه الأب سليم عبو، الرئيس السابق لجامعة القديس يوسف، الذي غادرنا لتوه لينضم إلى صديقه سمير فرنجية في ما وراءِ حيث لا تتناتش الكتائب الملائكية، كما البهائم التي تقتات من الجيَف، أشلاء جثة مملكة السماوات مثلما يفعل الساسة اللبنانيون الذين باتوا أسياداً في تناتش جيفة الدولة اللبنانية وتجريدها من كل قطعة لحمٍ لا تزال متّصلة بعظامها التي نهشها أكلةُ الجيَف هؤلاء.

أعلن الأب سليم دكاش، رئيس جامعة القديس يوسف، في كلمة الرثاء التي ألقاها، عن رغبة جامعته في نشر أنطولوجيا عن العيش معاً استكمالاً للمشروع الذي بدأه سليم عبو وسمير فرنجية بصورة مشتركة، مع كوكبة من الجامعيين، قبل أن يحول المرض والوفاة دون تمكّنهما من إتمام هذا العمل الموجَّه على نحو أساسي إلى الأجيال الشابة. انطلاقاً من تاريخ لبنان، أراد صاحبا المشروع أن يتركا لأجيال المستقبل أنطولوجيا يطّلعون من خلالها على تجذّر العيش المشترك، أي مفهوم السياسة (Le politique) في لبنان؛ وتساعدهم على تمييز المؤشرات التي تنذر بـ"لا تعايش"، أي باحتضار مفهوم السياسة، من أجل منع وقوع مثل هذه الكارثة وتجنّبها.

العيش معاً هو توليد مفهوم السياسة في مكانٍ معيّن، محدَّد جيداً، حيث قرّر أشخاصٌ مختلفون ومجموعات مختلفة التجذّر عبر الاستناد باستمرار، لا إلى إجماع عشائري بل إلى نصّ دستوري وقوانين يتقيّد بها الجميع. بهذه الطريقة، يترسّخ "المتحد السياسي"، فيوجِد "حاضرةً" ويقود إلى ظهور بروفيل "المواطن" الذي يكون ولاؤه للدولة، بحكم التعريف، راسخاً لا يتزعزع.

والمبادرة التي أطلقها الأب دكاش تطرح، مرة أخرى، السؤال المتعلق بمكانة الجامعة والجامعي والمثقّف في صلب المتحد السياسي أو العيش معاً. نعتقد، لا سيما في لبنان، أنه يجب أن يكون الجامعي والمثقّف "حياديَّين" حكماً، وأن يمتنعا عن اتخاذ مواقف، ويقتصر دورهما على أن يكونا مخصيَّي الفكر والروح. بالطبع، ليس المثقّف ناشطاً سياسياً على الرغم من السلطة المعنوية التي يمكن أن تُنسَب إليه في النقاش العام. هو ليس عضواً في أي حزب. يرد في "موسوعة أغورا" أن تأثير المثقّف يستند إلى ثلاث ركائز:

- تأثير ميرابو: هو قادرٌ على التعبير عن فكر شعبه وتقديم المشورة إليه بعدلٍ

> ليست القوى، المتنافِسة على السلطة، هي التي تستطيع أن تدّعي فرض هيمنتها في صلب الجامعة. وليس الحرم الجامعي رهاناً من رهانات السلطة السياسية. على النقيض، تبقى الجامعة منبت المبادئ الكبرى التي تحكم الحياة العامة

وإنصاف عبر الوقوف إلى جانب ضحية التاريخ لا إلى جانب السلطة القائمة.

- تأثير غوتيه: هو قادرٌ دائماً على التفوّه بكلام يتخطّى فردانيته للتعبير عن المسائل الكونية.

- تأثير جورجياس: هو مخوَّل التكلم عن مواضيع تتخطى مجال اختصاصه، باسم الحقيقة وليس وفقاً لتقنيةٍ ما.

يستطيع الجامعي ويجب أن يكون مثقّفاً. لا يمكنه الاستقالة من النقاش العام تحت طائلة اتهامه بإساءة الأمانة لوظيفته. وكونه ممثّلاً عن العالم الجامعي، ليس له أن يتخذ موقفاً لمصلحة قوة سياسية أو أيديولوجيا ما. أما على صعيد شخصي، وبصفته مثقفاً، فيحق له أن يتخذ موقفاً. كان سليم عبو وسمير فرنجية شخصيتَين جامعيتين لم تكن خياراتهما متطابقة خلال الحرب الأهلية اللبنانية، لكنهما عملا بصورة مشتركة بعد انتهاء المعارك خلال مرحلة إعادة الإعمار وساهما في إرساء مرتكزات "ثورة الأرز"، كلٌّ على طريقته ووفقاً للسلطة المعنوية التي يتمتعان بها باعتبارهما شخصيتَين مثقّفتَين.

الجامعة هي بمثابة دار الحضانة للمثقفين في البلاد، لأن الحرم الجامعي هو مساحةٌ مقدّسة لا يجوز انتهاك حرمتها، ملاذ حرية الرأي التي يمنحها الفكر. ليست الجامعة، بحد ذاتها، قوة سياسية. فهي تبقى بامتياز المنبر حيث تتفاعل الأفكار كافة. يَشارك العالِم كما السياسي في البحث عن الخير المشترك حتى ولو كان من الممكن أن يقعا في الخطأ. في قلب الحرم الجامعي، ذي الطابع القدسي، يتكوَّن بحرية تامة، بعيداً من أي أيديولوجيا، "معيار" الحاضرة وليس العكس. ليست القوى، المتنافِسة على السلطة، هي التي تستطيع أن تدّعي فرض هيمنتها في صلب الجامعة. وليس الحرم الجامعي رهاناً من رهانات السلطة السياسية. على النقيض، تبقى الجامعة منبت المبادئ الكبرى التي تحكم الحياة العامة.

إذا كان مجال الفيلسوف هو المفهوم، فمجال المثقّف هو الفكرة. ليس المثقّف "خبيراً" ولا "اختصاصياً بالعلوم السياسية". في الحرَم الجامعي، "القواعد التي تقوم عليها مكانة المثقّف شديدة التطلّب":

- كفاءة معترَف بها في مجال معيّن.

- القدرة على التحكّم بالأفكار العامة التي تساعد على التمييز بين ما هو كوني من جهة، وما هو شائع وموحَّد من جهة ثانية. هذا التمييز هو الذي يتيح للجسم السياسي ألا يسير نحو الموت بفعل جمود الإجماع المفروض قسراً وتماثله.

- يتميّز المثقف بنزاهة شخصية معترَف بها، بما في ذلك من قبل الأشخاص الذين يخالفونه الرأي.

هذا هو الدور الموكَل، ليس إلى الجامعة كمؤسسة، بل إلى المثقّف الجامعي: أن يكون طبيب الجسم السياسي.